محاكمة ماتا هاري

الجاسوسة الكبيرة توجه المحكمة العسكرية الفرنسية

فصل من تاريخ التجسس في الحرب الكبرى

لعل « ماتا هاري » أشهر جواسيس الحرب الكبرى على الاطلاق . بل هي حتما أشهر الجواسيس الذين كشف أمرهم وحوكموا واعدموا . ولدت في هولندا سنة ١٨٧٦ وبدأت حياتها العملية راقصة في باريس . وكانت ترقص في احد مسارح برلين قبل الحرب الكبرى لما انتظمت في سلك التجسس الالماني ووسمت برقم (H 21) والراجح ان أشهر فاطة تذكرها بياض ممرضة في الصليب الاحمر وذهابها الى ليتل حيث اتصلت بطيارى الحلفاء وانتزعت منهم أسرار دن الطرق التي كانوا يعمدون اليها في انزال جواسيس الحلفاء وراء خطوط الالمان . ثم اصبحت عظية بعض الضباط الفرنسيين في باريس فاطلعت بواسطتهم على المعدات التي يعدها الحلفاء لهجوم كبير على الجبهة الغربية . ثم كشف الجواسيس الفرنسيون انها استعملت بريد السفارة الهولندية الدبلوماسي لارسال معلومات الى رؤسائها الالمان . وبعد ذلك طلب اليها ان تكشف اسماء جواسيس الحلفاء في البلجيك فاقدمت بجرأة نادرة على ان تنتظم في سلك التجسس الفرنسي وطلبت الى تتصل بجواسيس فرنسا في البلجيك ، فاعطيت لائحة فيها اثنا عشر اسماً لم يكن الا واحد منهم جاسوسا فرنسياً . فلم تنقض الا ثلاثة أسابيع حتى قبض على هذا الرجل واعدم رمياً بالرصاص . وفي خلال ذلك كانت قد ظهرت فرنسا على انكلترا قادرة ان تذهب الى هولندا ولكن البوليس الانكليزي وضعها على بلغرة مسافرة الى اسبانيا فاصبحت في مدريد عظية الملازم فون كرول رئيس الجواسيس الالمان في جاسة اسبانيا . ولكن رؤساءها أمروها بالعودة الى باريس . ولما كانت في حاجة الى المال بعث فون كرون برقية لاسلكية الى استوكهلم يطلب فيها ان يرسل الى (H 21) مبلغ ٥٠ الف فرنك بواسطة السفارة الهولندية في باريس . فالتقطت هذه البرقية وحلت رموزها ولما وصلت ماتا هاري الى باريس قبض عليها وحوكمت وحكم عليها بالاعدام . وفيما يلي وصف المحاكمة . وقد اوردت بعض حوادث حياتها قبل ذلك جريا على

... واخيراً ازف الوقت لتقديم ماتا هاري للمحكمة العسكرية لمحاسبتها على فعالها . وكانت المحكمة مؤلفة من ضباط فرنسيين كانوا اخوان الضباط والجنود الذين ساقتهم الى الموت الرؤام بما افشت من اسرار حركاتهم العسكرية لقيادة الجيش الالماني . في هذه المحاكمة كشفت ماتا هاري عن عقلها وروحها كما كانت تكشف عن جسدها في ابهاء الرقص في الحواضر الاوربية . وكان لا ندحة عن ان تسبقها شهرتها الى منصة القضاء ، لان بعض فتياتها سمع بها حتماً اذ كانت كوكباً متألقاً على مسارح الرقص حيث اشتهرت بانها امرأة لا تقيم وزناً لاحكام الشرف والفضيلة . ولا ريب في انهم احسوا بسحر انوثتها كما احس به غيرهم من الرجال الذين انقادوا لها ، والراجح ان كلاً منهم تعجب في ما بينه وبين ذات نفسه ، سائلاً اي المقادير ساقت هذه المرأة الفتانة الى الانتظام في سلك التجسس . بيد ان

خلال التفكير التي تقيم وزناً للاعتبارات الادبية في سلوك الانسان لم يُقَمْ لها وزن في محاكمها. فاعضاء هذه المحكمة كان يهمهم ان يصلوا الى حقائق حياتها وصلة تلك الحقائق بمتابعة الحرب واحراز النصر فكان هذا ديدنهم في استطلاع خفاياها

ولا يظنّ احد ان قضاتها وقفوا منها موقف الظالم المستبد، لما تناهى اليهم من انباء فعالها في التجسّس على فرنسا لحساب المانيا، فعاملوها في خلال المحاكمة معاملة قائمة على كرم النفس وادب السلوك. فاذا رأيت في خلال وصف المحاكمة انهم وجّهوا اليها اسئلة تتعلّق بحياتها الخاصة وعلاقتها بالرجال الذين فتنوا بها، فاذكر انها اختارت ان تبني دفاعها على كونها امرأة حظيّة. ولكن القائمين بالبحث لم يسمحوا لحائل ما ان يحول بينهم وبين الحقيقة، وانا لسنا نجد فيما كتب عنها، قولاً واحداً يؤخذ منهُ، ان ماتا هاري او المحامي عنها، احتجّا في خلال المحاكمة على ان القضاة والمحقّقين حادوا عن جادّة العدل. نعم انها توسّلت الى قضاتها في بعض ادوار المحاكمة، ولكنهُ كان توسل سيّدة تطلب ان تعامل كسيدة لا كجاسوسة. وقد أثار مورنيه Mornay — السيف المصلت في خلال الحرب فوق رؤوس الجواسيس — غضبها احياناً ولكن ثورتها جاءت من ادراكها انهُ استروح الحقيقة التي حاولت اخفاءها في كلام فاضح فاهت بهِ، لا من اتّهام اساليبهِ بروح الظلم والعدوان

وكان قد تقدم للدفاع عنها الاستاذ كلونه Clunet وهو من كبار المحامين الفرنسيين وقد تعدّت شهرته حدود بلادهِ. طلب الاستاذ كلونه ان يعهد اليه في الدفاع عنها. وكان هذا غير مألوف في محاكمات الجواسيس. اذ قلما فاز جاسوس بمحام كبير من طبقة كلونه في الدفاع عنه. ولكن لاسباب خاصة قبل طلبه. فقد كان كلونه رجلاً كيساً على اساريره جلال الشيخوخة، ويعلو رأسه شيبة صالحة، وعلى صدره وسام الحرب السبعينية. فكان كل ذلك من البواعث التي تحمل المحكمة العسكرية على احترامهِ. ثم ان كلونه كان قد عشق ماتا هاري، لما كانت في اوج عزها وجمالها. وظلت الصلة بينهما صلة وثيقة بضع سنوات متوالية، فهذه الصلة القديمة بين المحامي وموكلتهِ ومقام الرجل في سلك المحاماة يضمنان لموكلته ابرع دفاع يستطيعهُ محامٍ على الاطلاق

جلست المحكمة العسكرية الثالثة، في دار محكمة الجنايات. وكان الرئيس جنديًّا قديماً محترماً، يدعى الكولونل سيجرون، رئيس الحرس الجمهوري سابقاً. وعقدت الجلسات في غرفة مقفلة الابواب لان طبيعة الاقوال التي قيلت في الاتهام والدفاع، كانت تقتضي بقاءها في طي الكتمان. حتى حراس حجرة المحكمة لم يسمح لهم بالدنو منها. ولم تحتو الحجرة الا على اعضاء المحكمة وممثل الاتهام والمحامي كلونه وضابط آخر وحارس المهمة، وهذا بحكم الطبع علاوة على الشهود الذين دخلوا الى حرم المحكمة لسماع اقوالهم

اما ذلك «الضابط الآخر»، فكان الكولونل ماسار Massard من ضباط اركان الحرب. ومعظم الحقائق عن محاكمة ماتا هاري منتزعة من كتابه الذي عنوانه «جواسيس باريس»

هنا في حجرة بعيد عن صخب الحياة الباريسية ، وقفت ماتا هاري تواجه التهم الموجهة اليها بأنها كانت على «صلة اجبارية بالعدو» : وهذه العبارة هي العبارة الرسمية التي يرد بها «التجسس». ويقول الكولونل ماسار ، انها وقفت هناك طويلة القامة نحيفتها ، زرقاء العينين نحيلاوبهما ، انيقة الثوب والقبعة ، ولكن شفتيها كانت تعلوهما بسمة ترفع وسخرية وفي عينيها قساوة لا تحد . على ان الكولونل ماسار لم يأخذ بقولهم انها امرأة فاتنة ، بل وصفها بقوله انها كانت المانية قلباً وقالباً

بيد ان كلاً من رآها ، اعجب بالحزم والثبات اللذين قابلت بهما قضاتها ، والذكاء الخارق الذي كشفت عنهُ في اقوالها وردودها . فقد كانت تملك جواباً جاهزاً لكل سؤال . فكانت تسلم بكل ما تتهم بهِ من افعال ، ولا تنكر الا ما تتهم بهِ من البواعث التي حملتها عليها . ولما شبهت «بمساليا»[1] لم تثر ثائرتها ، بل باهت باستسلامها للشهوة . سلمت بانها خطية . ولكنها انكرت انها جاسوسة . ذلك كان خطة دفاعها . وتمسكت بهذه الخطة الى نهاية المحاكمة . اما تصرفها تصرفاً يحيط بهِ الغموض ويثير الريب في بعض الاحيان فسببهُ — بحسب قولها — انهُ كان محتوماً عليها اخفاء شخصيات الرجال الذين كانوا من عشاقها . فماتا هاري لم تكن صريحة وحسب . بل كانت تفاخر بان عشاقها من اصحاب اكبر المقامات في فرنسا ، وانهم كانوا كراماً واسخياء في معاملتها

— قال رئيس المحكمة : في اليوم الذي شهرت فيهِ الحرب الكبرى تناولتِ طعام الغداء مع مدير بوليس برلين وبعد ذلك صحبتهِ في جولة في المدينة حيث حيتكما الجماهير

— فقالت ماتا هاري : هذا صحيح . وفسرتهُ بقولها ان مدير البوليس كان قد جاء الى المسرح لشأن خاص بثوب الرقص لان ثوبها هذا كان يكشف من الجسد اكثر مما تسمح بهِ القوانين

— فاستأنف الرئيس : وبعيد ذلك انتظمت في قلم الاستخبارات الالماني . فارسلك رئيس ذلك القلم في مهمة سرية الى باريس واعطاك ٣٠ الف مارك ووسمك بالرمز (H21)

— فقالت : الواقع انني اعطيت اسماً رمزيًّا لاستعمله في مراسلاتي مع صديقي . ولكن الثلاثين الفاً من المارکات لم تكن اجري كجاسوسة ، بل هدية لي كخطية . رئيس قلم الاستخبارات الذي تشير اليهِ

— نحن نعلم ذلك . ولكن يظهر ان سخاء هذا الضابط كان فوق ما يتوقع

— ثلاثون الف مارك ! أهذا ما تدعونهُ سخاء ؟ ان عشاقي قلما اهدوا اليَّ مبلغاً اقل من ذلك

ولكنها نقضت نفسها بنفسها حين سئلت في موضوع تراسلها مع الاعداء . وغرضها من ذلك ان تستفيد من اقوالها المختلفة في تطبيقها على الاحوال المختلفة التي تعرض لها . ثم شدد الرئيس الوطأة عليها عند ما اتهمها ، بانها تنكرت بلباس ممرضة وانتزعت من الضباط الفرنسيين كيف ينزلون الجواسيس الفرنسيين وراء الخطوط الالمانية

— الواقع انني كنت أراسل مع عشيقي الذي كان قد انتقل من برلين الى استردام . وليس

(١) الزوجة الثالثة للامبراطور كلوديوس اشتهرت بالفسق والطموح والتسلط على زوجها وقد أعدمت

الذنب ذنبي في انهُ كان رئيس قلم الاستخبارات الالماني . اما أنا فلم أبعث اليهِ شيئاً تقول

— لما كنتِ في جبهة الحرب ، اتصل بعلمك نبأ معدات تعدُّ لهجوم كبير

— علمت من بعض الضباط أصدقائي ان معدات تعد . ولكن لو أردتُ إنباء الالمان بذلك لما استطعت . فأنا لم أتصرَّف عما كان واقعاً لانني لم استطع الى ذلك سبيلاً

وقد كان قولها غريباً في بابهِ ، بعد ان صرَّحت قبيل ذلك بأنها كانت متصلة بالمراسلة بمدير قلم الاستخبارات الالماني . ولكن الواجب والكذب في نظرها كانا مترادفين . فهذا التناقض لم يكن ذا خطر في نظرها ، ولعلها ظنت انهُ لم يكن ذا خطر في نظر قضاتها ، فأخطأها الظنُّ . بعد ذلك نظر اليها الرئيس ، وهو يعلم انهُ اوشك ان يصل في التحقيق الى الادلة القاطعة فسألها في شيء كثير من الاهتمام عن تراسلها مع ابنتها عن طريق البريد الدبلوماسي الخاص بسفارة دولة محايدة في باريس

فقالت : اسلم بأني كتبت . ولكنني لم اتضمن كتبي انباءً ما عن شؤون عسكرية

الرئيس : ولكن عندنا الدليل على انك ضمنتها تلك الانباء : بل ولعلم الى من بعثت بها

كان في هذه العبارة أول اشارة الى مدى ما يعلمه البوليس الفرنسي عن فعالها . فتعجب لونها ولم تحاول ان تفيض في رواية البواعث التي حملتها على ذلك . ثم سئلت عن البواعث التي بعثتها على التطوع في خدمة قلم الاستخبارات الفرنسي ، فدلت أجوبتها على انها لم تجد رادعاً من نفسها لخيانة أصدقائها سواء أكانوا ألماناً او فرنسيين . قالت : لست أجد ما يستغرب في عرضي ان اخدم فرنسا . وقد كانت سلافي الخاصة مما يمكنني من هذه الخدمة . وعلاوة على ذلك كنت في حاجة الى المال . فقال الملازم مورتي : ولكن أصدقاءك بعثوا اليك بعشرة آلاف مارك عن طريق سفارة دولة محايدة . فقالت : كان ذلك المال من صديقي

ومما يجدر ذكره هنا التناقض في اقوالها عن اتصالها بصديقها . فهي تستطيع ان تراسله او لا تستطيع ان تراسله بحسب مقتضيات الحال . ولكنها لما أجابت الملازم مورتيه بقولها « كان هذا المال من صديقي » بدت في كلامها امارات الغضب ، ولعلَّ ذلك نشأ من كونها قالت قبل لحظة من الزمان مباهية بأن صديقها لم يهبها مبلغاً ما اقل من ٣٠ الف مارك . فرد مورتيه ردًّا جافياً : من صديقك رئيس قلم الاستخبارات السرية في الجيش الالماني . ثم اصبحت جاسوسة في خدمة فرنسا . فاذا فعلت ؟

— اعطيت رئيس المكتب الثاني من قلم الاستخبارات السرية الفرنسية اسماء الاماكن التي تلجأ اليها الغواصات الالمانية على شواطىء مراكش وقد كان للمعلومات التي قدمتها فائدة كبيرة

— ومن اين حصلت على هذه المعلومات — قال رئيس المحكمة — فاذا كانت صحيحة ، دلَّ ذلك على انك كنت على صلة مباشرة بالعدو . واذا كانت كاذبة دلَّ ذلك على انك تخدعيننا

هنا تضعضعت ماتا هاري وطاش صوابها . فلما حاولت ان تعلل ما لا يعلَّل فاهت بأقوال لا تستقيم على معنى . قالت انها سمعت اسماء هذه الاماكن في مأدبة دبلوماسية كانت قد دعيت

للرقص فيها . ولكنها لا تذكر أين كان ذلك ولا من صحبته . ولما ادركت ماتا هاري ان ارتباكها وتلجلجها اخذا يؤثران تأثيراً سيئاً في تفوس قضاتها، استشاطت غضباً وقالت لمخاطبة الكولونل سمبرون :

— على كل بذلت لفرنسا ما استطعت . وقد كانت للانباء التي افضيت بها قيمة تذكر . لست فرنسية . ولست مدينة لفرنسا بشيء . انني امرأة مسكينة ، وانتم كضباط يعوزكم كثير من الكرم والشهامة . فانحنى مورنيه امام ماتا هاري المحاماة الاجلال يشوبه شيء من السخر وقال : — لتصفح عنا سيدتي . فنحن ندافع عن بلادنا ليس الا . ومما لا ريب فيه ان الجاسوسة اضطربت لهذا الهجوم ولكن بعد هنيهة من التأمل رأت ان تخفي اضطرابها ، تحت ستار قولها الآتي وقد فاهت به بلهجة المتكبر : لست فرنسية ولا المانية بل انا من بنات دولة محايدة . انتم تضطهدونني . وفي عملكم ظلم . بل اعيد ما قلته وهو انهُ يعوزكم كثير من الكرم والشهامة . ثم نظرت الى مورنيه دقيقة بنفثة مقلوبة اعربت بها عن احتقارها له ثم قالت متمرمرة : — ان هذا الرجل كريه

فقال الكولونل سمبرون : هدئي روعك يا سيدتي . وبعد فترة قصيرة جمعت فيها امرها المتفرق قال لها : — اعطاك انكابتن ليدو وثيقة عهد اليك في ايصالها الى مندوبينا في البلجيك . فما فعلت بتلك الوثيقة . فلم تجب

فأعاد السؤال مشدداً في وجوب الحصول على جواب قائلاً : اتذكرين ماذا فعلت بالورقة التي عهد اليك في نقلها الى وكيلنا ؟ فقالت لا . وكان جوابها جافياً

ويقول احد اعضاء المحكمة العسكرية ، ان ماتا هاري لم تكن قد تحققت مدى الخطر المحدق بها حتى انتزعت من بين شفتيها تلك اللفظة النافية ، ولو انها قالت انها تذكر ما فعلت بها ، لانهالت عليها الاسئلة الخاصة بها . ولكن المحقق — وقال هذا معروفاً عند المحكمة العسكرية الفرنسية — انها كانت قد بعثت بها الى الالمان في استردام قبل ان غادرت فرنسا . وفي هذه الحالة ، كان النسيان اقوم عذر تعتذر به . ولكن الرئيس لم يقف عند هذا الحد ، بل شرع في اسئلته يهدي ذاكرتها الى الحوادث التي غابت — او ادعت — انها غابت عنها . قال : ان وكيلنا الذي أمرت بالذهاب اليه في البلجيك قبض عليه الالمان في بروكسل بعد ما انقضت ثلاثة اسابيع على مغادرتك باريس ، ثم اعدم رمياً بالرصاص

ومن الواضح ان القضاة كانوا عند بلوغهم هذه المرتبة من المحاكمة ، قد اصبحوا مقتنعين بصحة التهمة الموجهة اليها . ولتأييد اعتقادهم هذا رأوا السيدة المتكبرة الواثقة من نفسها ، وقد تضعضع صوابها ، فصارت تتعثر وتتردد وتتلعثم ، كلما حاول الرئيس او مورنيه ، ان ينتزعا الحقيقة من شفتيها بالاسئلة الموجهة اليها المنطوية على ما يعلمان . ولكنهما مع ذلك عجزا عن ان ينتزعا منها اعترافاً صريحاً

ثم وجهت اليها المحكمة الاسئلة عن مقامها في مدريد عاصمة اسبانيا : قال احدهم : —

— نزلت في الفندق بمدريد في غرفة مجاورة لغرفة رئيس التجسس الالماني في تلك المدينة

— هذا صحيح

— هذا المندوب البرليني نقدك مالاً وزيارات كثيرة متوالية — وهذا صحيح كذلك

— وتلقيت هدايا منهُ — بكل تأكيد. لانهُ كان عشيقي. قالت هذا وفي كلامها شعور بالثقة

— انت تعلمين ونحن نعلم ان رسائلك الى عشيقك في استردام كانت محفاة بامضاء (H 21)

— فكان جوابها السريع : ليس هذا القول صحيحاً

ويذكر القراء ان ماتا هاري كانت قد سلّمت قبلاً بانها استعملت رمزاً لمراسلة حبيبها : الذي اتفق انهُ كان مدير قسم التجسس الالماني ، وان ذلك ليس ذنبها

— أستميح سيدتي عذراً، ولكن ما تنفيهُ صحيح . والدليل على ذلك هذه الرسالة البرقية التي بعث بها المندوب الالماني في مدريد الى زميله في استردام طالباً مبلغاً من المال لـ(H 21) عن طريق سفارة دولة محايدة . عند ذلك كاد يغمى عليها . فانها لما أدركت ان الفرنسيين يملكون نص هذه البرقية ، انهار دفاعها من أساسهِ . ولكنها تمالكت نفسها ثم صاحت : أقول لكم . . . أقول لكم . . . ان ذلك كان ثمن .... ثمن التصالي الوثيق بهِ . هذا هو ثمني . . . . آه يا أسياد فرنسا . . . صدقوني . . . كونوا كراماً . فذعر الاستاذ كلونه لاضطراب موكلتهِ وارتجافها ، فنسي عمله كمدافع عن جاسوسة ، واصبح الرجل الكريم الذي يحبُّ ان يدفع عن امرأة جميلة ما يهدّدها ، فقدّم لها زجاجة من الأملاح العطرة وصندوقاً من الشكولاته

فصاحت ماتا هاري في وجههِ : لا حاجة بي الى هذا . لست طفلة . . . سأعتصم بالشجاعة

ثم التفتت الى المحكمة وفي عينيها وانفها المرفوع معاني التحدّي

فقال الرئيس : ولا تستطيعين ان تنكري انك ذهبت الى السفارة وقبضت المال الذي كان الملازم فون كرون (رئيس التجسس الالماني في مدريد) قد وعد بهِ

— واية فائدة من انكار ذلك ؟ فالملازم فون كرون لم يشأ ان يوفّي ثمن هذا التقرّب بماله الخاص مفضلاً ان يوفّيهُ بمال حكومتهِ

— المحكمة تقبل تفسيرك هذا . فانت تعترفين بان المال جاءكِ من رئيس قسم التجسس الالماني في هولندا ؟

— لا ريب في ان المال جاء من عشيقي في هولندا الذي سدّد من دون ان يعلم دين عشيقي في اسبانيا

فاضطرب الاستاذ كلونه لهذه الاجوبة المضطربة . كيف يستطيع ان يوفق بين قولها ان فون كرون وفّى دينهُ لها بمال الحكومة ، وقولها ان عشيقها الالماني كان يسدّد دين زميله في اسبانيا

عند هذا الحدّ رفعت الجلسة . وفي خلال فترة الاستراحة ، طاف المحامي الشيخ مستطلعاً موقف موكلتهِ في رأي القضاة . فلم يسمع ما يحملهُ على التفاؤل . ولكنهُ لم يقنط . ولما سأل الماجور ماسار قال هذا انها مقضيٌّ عليها . ولكن المحامي ردَّ عليهِ : تريّث قليلاً حتى تسمع اقوال الشهود . او تريث حتى تسمع دفاعي

فلما اعيدت الجلسة لسماع الدفاع وعرفت ماتا هاري ان بعض اصدقائها من ذوي المقام قد قبلوا ان يدلوا باقوالهم دفاعاً عنها ، استعادت ثقتها بنفسها واخذت تمارس فنون فتنتها . فاخرجت من كيسها القلم الاحمر ودهنت به شفتيها ، واخذت من محاسنها طاقة من الزهر قدمتها اليها . ها هي ذي تبسم كأنها تغذي في قرارة نفسها رجاء خفيًّا . وها هي ذي تفتح صندوق الشكولاته وتأكل منها بشهية

والشهود اكان في مقدمتهم جول كامبون اول عشاقها عند قدومها الى فرنسا ورئيس الموظفين الدائمين بوزارة الخارجية الفرنسية. كان دبلوماسيًّا محنكاً ممتازاً في سلوكه واثقاً من اقواله بارعاً في الاخذ والرد

فقال الرئيس : ولماذا دعوتم هذا الشاهد

فقالت ماتا هاري ، من دون ان تنظر اليه ، ولكن بلهجة كلها اغراء : انهُ يشغل منصباً من اكبر المناصب في الحكومة الفرنسية . انهُ على اتصال بجميع اغراض الحكومة واعمالها الحربية المتوقعة . لقد قابلتهُ بعد عودتي من مدريد . وقد كان اول عشاقي بعد طلاقي . فكان من الطبيعي ان اقابلهُ وان اغتبط لهذه المقابلة . ولقد صرفنا معاً ثلاثة ايام بلياليها قبل القاء القبض عليَّ . وليس عندي اليوم الاَّ سؤال واحد اوجههُ اليه : هل طلبتُ منهُ في حالة من الحالات ، او وقت من الاوقات ، ان يطلعني على شيء مما يعرف . هل توسلت اليه بالصلة الوثيقة بيننا الى اطلاعي على سرٍّ يمكنهُ فردٌ كامبون قائلاً : ان السيدة لم توجه اليَّ اي سؤال من هذا القبيل

فقال المحامي: ترون اذن انها ليست جاسوسة . ولو انها شاءت ان تستطلع الاسرار فما كان عليها الاَّ ان تمدَّ يدها ؛ فتميط عنها اللثام . فقال الرئيس: ولكن ما كان موضوع حديثكما خلال ثلاثة ايام، والبلاد في حرب الموت والحياة ؟ ان ذلك لا يكاد يصدق

فقالت : لا يكاد يصدق ! ولكنهُ مع ذلك هو الواقع . لقد تحدثنا في موضوع الفنِّ الهندي

فقال مورنيه : للمسلَّم بذلك . ولكن يجب ان تعترفوا بان المتهمة كانت على جانب وافر من الذكاء مكَّنها من ان تفهم انهُ يتعذر انتزاع المعلومات السرية من الساحة المجرَّبين ، انتزاعها من صغار الضباط الكاري بخمر الحرب ونشوة الحب . ويجب ان تعترفوا كذلك بان صلتها بكبار الموظفين مما يرفع مقامها في اعين الالمان . وقد قيل ان بعض الاوراق التي كتبت ماتا هاري رسائلها عليها لاصدقائها في مدريد واستردام كان من ورق « وزارة الخارجية — مكتب الوزير » . ولا ريب في ان هذه الصلة كانت سبيلها للحصول على الاجر العالي الذي فازت به . ومجرد ظهورها في صحبة السياسي الممتاز الماثل امام المحكمة احاطها بهالة من السلطة والنفوذ مكَّنتها من التشدُّد في مطالبها

ولما سئل الشاهد هل عنده ما يضيفهُ الى اقواله قال : لم يحدث ما يحملني على تغيير رأيي في هذه السيدة . بيد ان امارات الارتياح بَدَتْ على وجههِ لما توقف مورنيه عن الكلام ، كأنهُ كان يخشى ان يتوسع في حديث ليس متصلاً كل الاتصال بعلاقة الصداقة التي كانت تربط بينهما. ومع ذلك ظلَّ السيد الكريم لائهُ عند نزوله من موقف الشهود انحنى لها باحترام وخرج

وكان الشاهد الثاني الجنرال مسيمي وزير الحربية سابقاً . وقد كان واحداً من ضحايا فتنتها وجمالها. ولما كانت تبعاتهُ العسكرية تقضي ببقائهِ في مقرّه العسكري ، بعث بشهادته مكتوبة بعد ما أقسم امام قاضي الجلسة التي كان فيها بصحتها ، وفيها صرّح ان المتهمة لم تسأله مطلقاً اي سؤال لهُ صلة باعمال الحرب ، او يثير ايَّ شبهة في نفسها

ومن المتعذّر ان نسوق الى القراء هنا كلّ ما جاء في اقوال الشهود . بل ان بعض ما قيل سوف يظل مجهولاً الى الابد لانهُ لم يدوَّن لاتصاله بمقام كبيرين من اصحاب المقام

بيد ان المجمع عليه ان جميع الشهود الكبار الذي دعوا للشهادة ، لم يؤخذ عليهم مطلقاً افشاء اسرار الدولة . ولكن صداقتهم كانت على كل حال — كما قال مورنيه — ذات اثر عظيم في مقام ماتا هاري كجاسوسة المانية ومقدار المال الذي تقتدهُ جزاء لها على عملها

وبعد ما سمع الشهود شرع الاستاذ كلمرنه في دفاعه . فالادلة التي تجمعت ضد المتهمة في خلال المحاكمة كانت مما لا يمكن نقضه . والاستاذ كلمرنه لم يحاول ان ينقضه . بل اقتصر في دفاعه ، على التوسل الى القضاء ان يرأفوا بامرأة بارعة الجمال سيقت الى التضحية بجمالها ومواهبها في سبيل الاجرام . فصوَّرها اولاً ، ببلاغته الخلاَّبة ، زوجاً شقية ، وكيف كان زوجها يضطهدها ويسيء معاملتها ان تكسب رزقها من طريق الرقص . ولكن معرفة احوالها الخاصة لم تكن سبيلاً الى الغفران في نظر اعضاء المحكمة . فلما اتم المحامي دفاعهُ اتجه رئيس المحكمة الى المتهمة وسألها هل عندها ما تضيفه الى ما قيل فأجابت سلباً وقالت : — ان محاميَّ قد قال لكم الحقيقة . لست فرنسية . وليس لي حق ان اتصل بصلة الصداقة بأحد من ابناء البلاد المحالفة عمار الحرب ضد فرنسا . ولذلك بقيت على الحياد . ولذلك انا اعتمد على طيبة قلوبكم ايها الضباط الفرنسيون

واختلت المحكمة عشر دقائق فقط . ولما كانت العادة في المحاكم الفرنسية ان لا تقرأ المحكمة الحكم على المتهم ، خرجت ماتا هاري من حرم المحكمة ، عند ما عادت الى الاجتماع . عندئذ اتجه الرئيس الى اصغر الضباط سنًّا وسأله رأيه ، لئلاَّ يتأثر برأي الاعضاء الذين يتقدمونهُ . قال : في قرارة نفسك وخفايا ضميرك ، هل انت مقتنع ان هذه المرأة ارتكبت اثم نقل الاخبار والوثائق الى العدو ، وانها كانت سبباً في موت كثير من جنودنا . فأجاب كلّ من اعضاء المحكمة بدوره « نعم »

ولما اتم الاعضاء توقيع الحكم ، رمى احدهم الريشة من يده وقال : كرهت عليَّ الحكم بالاعدام على من كان يملك هذا الجمال ، على مخلوقة على هذا الجانب من الفتنة والذكاء ، ولكن لو اتيح لي لأعدمتها رمياً بالرصاص عشرين مرة . وفي اثناء ذلك كان المحامي الشيخ قد ادرك حقيقة الموقف فقال لموكلته ان تعتصم برباطة الجأش . ولما قرىء الحكم بكى الشيخ من دون خجل . وماتا هاري اهل بكت او اغمي عليها ؟ كلاَّ . بل وقفت هناك هادئة الروح وعلى ثغرها بسمة . فصاح احد ضباط الحرس : يا الهي. انها تعرف كيف تموت !